الأصوات الاجتماعية والتّضاد الإيديولوجي.
في رباعية الخسوف لإبراهيم الكوني.

أ/ سامية عليوات.
جامعة البويرة.

الملخّص:

"الخسوف" رواية رباعية مبنية على أسس فارقة جعلت منها رواية غير متجانسة تتطلّب قارئا متعدّدا لتفكيك خطاباتها المرموزة، وقد استثمرت حكاية قبيلة تحوّلت عبر سيرورة السرد إلى حبكات متشابكة تتعدّد في المكان والزمان ممّا نتج عنه تفاعل الخطابات واللّغات التي ترصد التفاعل الاجتماعي وتشي بجدلية العلاقات، فهي رواية لا تتوسل، من أجل إيصال خطابها، لغة واحدة وحيدة بل لغات متعدّدة وغير متجانسة، جعلت من خطابها خليطا من الأساليب واللّغات والخطابات، حتى غدت لغة "الخسوف" هي التنوّع الاجتماعي للّغات والأصوات الفردية، مزيج اجتماعي بامتياز مشيّد داخل فعل التبادل والحوار المتواصل بين اللّغات وأشكال الوعي المتجاورة.

Résumé:

" L'éclipse"est un quatrain basé sur une diversification la rendant ainsi un roman hétérogène exigeant un lecteur pluriel qui puisse décortiquer ou décoder ses signes et symboles. L'histoire en question traite d'une tribu qui s'est transformée, au fil du récit, en une pluralité d'intrigues qui se démultiplient dans l'espace et le temps. Le résultat est une formidable interaction discursive et langagière qui illustre clairement la réalité de la société touarègue. Cette dernière ne se fait pas entendre dans une seule et unique langue, mais le récit met en relief toute une palette de genres littéraires et non littéraires multiples . Ainsi, la langue de L'éclipse est un excellent mélange sociolangagier des paroles individuelles et collectives qui se mélangent et interagissent pour créer une communication entre les langues et les formes de consciences environnantes.

*** *** ***

1- مكوّنات مجتمع الرواية: يشكّل مجتمع "الخسوف" تركيبة اجتماعية متنافرة تتساوق مع طبيعة المجتمعات الصحراوية: مجموعات من البشر تفرّقهم المهن والدين والعشيرة، وداخلها مجموعات صغيرة في صورة قبيلة الشيخ غوما، وهي بالحريّ، تشكّل بنية رمزية للموروث الديني والاجتماعي واللّغوي، وتحيا في خضم صراع مع الوافد من العادات والسلوكيات واللّغات التي تصاحب تدفّق الشركات الأجنبية وأرتال العسكر من الجنسيات المختلفة، وكلّ هؤلاء يشكّلون مجتمع الرواية. إنّنا إذن إزاء مجتمع غير متجانس، مجتمع لا يشكّل وحدة متماسكة أو أرضية اجتماعية يتأسّس عليها البناء الفني في سبيل تماسك بنيته، وبدل ذلك ارتهن السارد إلى روابط غير اجتماعية هي الفضاء الصحراوي وروح ذلك الفضاء متمثّلة في أساطير الصحراء وفي طبيعة ذلك الفضاء: البشر في الصحراء متباعدون في تقاربهم كما مكوّنات الصحراء، لكنّهم خاضعون للشروط نفسها، تماما كما تخضع مكوّنات الصحراء لتركيبة مستقرّة منذ الأزل هي من خصوصيتها وطبيعتها، والفكرة التي ينتجها هذا الخليط الاجتماعي ليست إلاّ الصراع الذي يتولّد من الاحتكاك الاجتماعي، الصراع الذي بدأ بين مكوّنات المكان (الصحراء الرملية والصحراء الجبلية) منذ زمن بعيد.

هكذا تبني "الخسوف" مجتمعًا غير متجانس، بل متصارعا إيديولوجيا: القبيلة، وهي بنية اجتماعية، الشركات الأجنبية، وهي بنية طارئة، موري وكونستانس، بنية رمزية، بورديللو، سلطة أجنبية، مخلوقات الصحراء وحيواناتها، بنية قارّة.

لا تربط بين أعضاء هذا المجتمع أي رابطة مهنية أو اجتماعية. العلاقة الوحيدة الظاهرة هي الصدام ومحاولة الإخضاع، ممّا عزّز انتشار علاقة عدم التكافؤ وولّد توتّرات مزعجة في فضاء منعزل لا سلطة تضبط علاقات أفراده، لذلك تقدّم هذه العلاقة غير الثابتة في الأصل، صورة واضحة للتقاطع الحاصل بين العناصر القارّة في المكان وتلك الطارئة عليه، التي تسعى لفرض سلطة جديدة وغير مبرّرة، فينتج الصراع.

ترسم الرواية في جزءها الأوّل صورة لمجتمع مصغّر (القبيلة) يعيش في انسجام على الهامش، لكنّها تقدّم مؤشّرات على تغيّر هذا النظام منذ بدايتها أيضا حين

يجفّ بئر أطلانطس، مصدر الاستقرار وآلية التوازن والانسجام الاقتصاديين، لكن سرعان ما تفقد هذه الآلية فعاليتها بفعل الجفاف، فتجد القبيلة نفسها مضطرّة إلى الهجرة، فما يلبث التوازن الاجتماعي أن يختلّ بعد اختلال التوازن الاقتصادي بفعل نضوب مياه البئر.

تجربة الحياة في الصحراء مرتبطة بالارتحال، الواحة هي وجهة جديدة، يتطلّب التأقلم سلوكيات جديدة والتخلّي عن أفكار سابقة، لا تمنح الواحة أفراد المجتمع المصغّر الوافد علاقات سلسلة ومتداولة، الصراع على سلطة الواحة، والتأقلم مع نظام اقتصادي جديد هي أهمّ رهانات الحياة هناك« كلّ أفراد القبيلة استبدلوا، مع الوقت، الأكواخ بالخيم في مدد متفاوتة، منهم من بادر ومنهم من تمهّل.»[1]،« أنت تعرف صراحتي وتعرف أيضا مدى معزّتي، أنت تعرف أكثر منّي أنّ أجل الشيخ غوما قد حلّ والصراع سوف يشتدّ لاختيار خليفة له.» [2]هكذا تشير الرباعية إلى ملامح وتجلّيات المتخيّل الاجتماعي المتحوّل نتيجة العيش في مجتمع غير متجانس، لتؤكّد عبر أجزائها الأربعة نتيجة الاختلاط بالآخر، حيث يعمل اللاتجانس الاجتماعي على الاقتراب من عناصر المتخيّل وتمظهراته. وبذلك لا تختزل "الخسوف" التعقيدات الاجتماعية في مقولات موضوعية فقط، بل تشخّص الظواهر والعلاقات والأصوات واللّغات عبر إشاراتها، وتشكّل دلالاتها الاجتماعية بطريقة جديدة في التقاط تغيّرات المجتمع والمتخيّل بما يلفت النظر إلى متخيّل اجتماعي وثقافي مغاير للموروث الواقعي في السرد العربي، يتغذّى من شرايين العجائبي ويستند إلى المحكي الأسطوري، ويقيم حوارا مع الخطابات الغيرية والأجناس التعبيرية غير الأدبية، لذلك تقول العلاقات الداخلية لمجتمع الرواية الصحراوي بحوار متعدّد الأطراف يبحث فيه كلّ طرف عن تحقيق ذاته ورصد صورته في نظر الآخر، فيصبح الكلام عرضا لأشكال أوعاء المتكلّمين ومستوياتهم، والآخرين ومستوياتهم الاجتماعية واللّغوية، وملتقًى للذّات والآخر عبر الطبيعة الحوارية للكلمة. ومرّة أخرى تكشف الصحراء عن طبيعتها من خلال ملفوظات مجتمع يعيش فيها: لا رابط مهنيا أو اجتماعيا يربطهم أو يقرّبهم من بعضهم البعض، مجتمع غير تراتبي، مفارق، المفارقة هي ما يصنع الصحراء، وهي ما يصنع

الحوار، إذ لا حوار بين متطابقين يريان في الكلمة الواحدة المعنى نفسه ويستخدمانها بذلك المعنى، ولا حوار مع من سكنه اليقين.

2- اللّغات الاجتماعية: يخبر تحليل أصوات المجتمع في "الخسوف" عن تعدّدية اجتماعية تكشفها ملفوظات متغايرة تعبّر عن أصوات متضادّة إلى حدّ الصراع، وقد تعزّز ذلك باختلاف المرجعيات الفكرية والخلفيات الدينية التي يصدر عنها كلّ صوت.

إنّ ما يستوقفنا أثناء قراءة الرباعية ليس فقط تعدّد عناصر الإطار الموضوعاتي فيها وأشكال صيغ الخطاب، وإنّما أيضا التعدّد اللّغوي المولّد لتعدّد صوتي يستهدف خلق تخييل يقفز على الواقعية المتوهّمة والأحادية المتكلّسة لغويا وصوتيا ليشكّل نصًا متعدّدا ومتداخلا وهجينا، وخطابا مشخّصا بلغة تبنى داخله بوصفها جزءا من التجربة التي تعيشها الشخوص وتنقلها كلماتهم في عالم النّص وتحيل بإشارات إلى خارجه، حيث تجد لها رديفا في المجتمع الواقعي الصحراوي، وبوصفها كذلك جزءا من مغامرة الكاتب في حكي عالم الصحراء الذي لا يعيد إنتاج عالم المدينة من جهة، ويبدع في الكلام التي تنتجه الاستذكارات والأحلام والمسموعات الاجتماعية التي يطرق إليها أذنيه في حديث القوافل والمجالس.

تحقّق "الخسوف" في كلّ جزء منها تعدّدا صوتيا (وعيويا)، ذلك أنّها تجمع لغات اجتماعية متعدّدة تشكّل خطابات غيرية ووجهات نظر متصارعة، يقف السارد على مسافة واحدة من ملفوظاتها في دعم واضح لحياده.

2-1- الخطاب الوطني: أوّل الأصوات ذات الصدى في مجتمع الرواية يمثّله الشيخ غوما، شيخ القبيلة وزعيمها، صوت شكّلته تجارب الحياة في صحراء قاسية، حكيم، متديّن، ووفيّ للصحراء وللدّماء التي سالت دفاعا عنها، محترم في قبيلته وفي الأوساط الحكومية وفي المجالس الرسمية، تاريخه النضالي يشفع له عند أعلى درجات المسؤولية في الدولة« بقي في الأسر شهورا كاملة امتدت قرابة العام، قابل خلالها ضباطا إيطاليين كثيرين يبدو من أسلوبهم أنّهم من ذوي الرتب العالية..»[3] رفض في أعقاب خروجه من السجن، منصب المشيخة الذي أصرّت القبيلة على أن يتقلّده وقالوا أنّه « ليس هناك رجل واحد يستطيع أن يتولّى شؤون القبيلة طالما هو على قيد الحياة، وبقيت القبيلة ثلاثة أشهر بدون شيخ قبل أن ينزل غوما

عند رغبتهم ويرضى بقبول المنصب.» [4] قائد مفاوض باقتدار، ومحاور بارع، يحكّم صوت العقل ويسعى في مصالح أفراد قبيلته، مهاب الجانب، ترده الأخبار قبل غيره ومطّلع على أحوال قبيلته:« وقف في مواجهتهم وقال مهددًا بسبابته: "ألا تستحوا، في المخيم مأتم وأنتم ترقصون وتغنّون، توقّفوا حالا. اذهبوا من هنا!. سرت بين الرجال همهمة وهمس، لم يجرؤ أحد أن يسأل من الذي مات.» [5] يعرف أساطير المكان وبطولات أهله، حريص على قبيلته وعلى مصالح الدولة أيضا، هكذا هدّد كونسا الذي كان يتظاهر بالتوفيق في اختيار مكان حفر النبع، لكنّه يحفر في المكان غير المناسب، برأي غوما، فقال له: « بلغني أنّك تريد أن تلعب برزق الأطفال والعجزة وتقتلهم جوعا وعطشا! تتآمر على النبع. إياك! تتظاهر بالتوفيق في اختيار المكان وتستمرّ في الحفر في المنطقة الغربية خارج حزام النهر حتّى إذا انتهت مدّة العقد لملمت آلاتك ورافعاتك وحفارتك ورحلت. إياك! هذه حيل لن تمرّ، يجدر بك أن تنقل حفارتك إلى المنطقة الجنوبية الشرقية إذا أردت أن تقدّم الدليل على حسن النية"... بعد يومين كانت الآلات الوحشية تنقل ضجيجها الذي لا يتوقّف نحو الشرق... مع حلول الشتاء تدفّقت الينابيع وتفجّر الماء من النبع.»[6] رجل مثقّف ويؤمن بالاختصاص في العلوم، ما دفعه إلى انتقاد كونسا حين جاء بالرقريقي الذي كوى ماريا زوجة كونسا بالسيخ الملتهب في رأسها:« لا يليق بعالم مثلك أن يستعين بالدجالين في معالجة المرضى!.» [7] لا يخشى في الحقّ لائما، وينتقد قرارات الحكمدار:« إنّي أرثي لحالكم، أشعر بالخجل نيابة عنكم.. يؤسفني يا حضرة الحكمدار أن أقول إنّكم سفّهتم كلّ عملنا في الماضي ... كي تأتوا اليوم لتطلقوا النار على أولادنا وأحفادنا... وكيف سأعبّر عن ذلك؟ سأرفع السلاح...» [8]

أنقذ قبيلته من كوارث كانت ستؤدي بهم عن بكرة أبيهم، بداية بالموت عطشا ومرورا بالطوفان الثاني وانتهاء بالعقارب التي هاجمت الوادي:« ولو لم يصل الشيخ غوما بقبيلته وادي الآجال، بعد أربعين يوما من انطلاقه لعبور الصحراء الرملية، لما صدّق أحد هذه الواحة وجدت فوق الأرض يوما ما.» [9]، حكمته وزهده عن متاع الدنيا أنقذا قبيلته من الهلاك مرّة أخرى إلاّ من عصى أمره: «..إذ أردنا النجاة من العقارب – التي ما هي إلاّ عقاب ربّاني على آثام ارتكبناها- فعلينا أن نتطهّر ونرتدي لباس الإحرام كما يفعل المسلمون في الحج عندما يتجرّدون من

المخيط، علينا أن ننتصر على أنفسنا ونحتقر مقتنيات الدنيا وندع آثامنا مدفونة بين ثنايا الأكياس والخروج ونوليها ظهورنا كما تعوّدنا أن نفعل في مواسم السيول.» [10]

2-2- خطاب العجيب والخارق: يمثّل العراف "مهمدو" صوتا ذا خلفية مغايرة، رجل مفتون بالمال ومسكون بالجنّ، لا يتورّع في استظهار جثث الموتى وذبح الجيفة خدمة لأغراضه الشيطانية، مات وبعث حيًا، يتخلّف عن مواعيد القتال ويسخر ممن يواجهون عدوا مجهّزا بأسلحة خرافية تروى عن فعاليتها الأساطير ببنادق عثمانية قديمة. [11]

يتظاهر بالمرض في وقت الشدّة فيقولون عنه:« العراف يتمارض، إنّه يعرف أنّ الجهاد ضدّ الجنّ شيء والجهاد ضدّ الطليان شيء آخر، حقًا أنّ الحرب تضع الناس على المحكّ وتفرز معدن الرجال.»[12] فيتزاحم الأطفال أمام مغارته يصفّقون ويردّدون: « مهمدو مرة! مهمدو مرة.»[13] وحينها أدرك أنّ الأهالي هُم من ألّب عليه الصّبية، فالتحق بالمعسكر ثمّ وقع في الأسر، لكنّه هرب بطريقته:« هربت. قرأت على رأس العسس آية الكرسي المعكوسة وتعويذة أخرى تقيّد العفاريت تعلّمتها من المرحوم الشنقيطي فنام الحرس وتسلّلت من معسكرهم هئ- هئ- هئ...»[14] أمر أدهش الشيخ غوما. وحتّى حين أسروا مرّة أخرى اضطرّ مهمدو أن يحتكم إلى مهنته ويطلب النجدة من الجنّ: « ركن إلى ربوة وطفق يقرأ التعاويذ ويردّد الأوراد ويقطّع أوصال آية الكرسي مخاطبا المردة حتى مطلع الفجر.. لبّى أعوانه النداء وتنادوا وجمعوا شملهم في الصحاري المجاورة وهبّوا إلى نجدته، قال إنّهم جاءوا يركبون العجّاح وغطوهم بكساء من غبار وحجبوهم عن أعين العدو... فأمسك المجاهدون بأيدي بعضهم وانسلوا في وضح النهار ولولا أعوان مهمدو لما نجا منهم أحد يومها، فعرفوا كيف يعطون للعرّاف ما يستحق من التقدير وهم الذين أشبعوه اغتيابا.» [15] ومنذ هذه الحادثة صار صديقا حميما للشيخ غوما: يستشيره في كلّ أمر ويأخذ برأيه في بعض الأحيان.

وعلى العموم فإنّ مهمدو يمثّل صوت العجائبي والخارق في الرواية. إنّه أحد مكوّنات الصحراء، يربط بين عالمي الإنس والجنّ، يكلّم الثقلين ويستغلّ المردة في

خدمة بني جنسه، رجل رغم كلّ مساوئه مؤمن بالقضاء والقدر، حتى إنّه لم يحاول الفرار من الطوفان، لأنّه أدرك أنّه قدره ولا مفرّ من القدر.[16]

2-3- الخطاب الديني: يمثّل الصوتَ الدينيَ في الرباعية "الحاج البكاي" والشيخ "المراكشي".

أمّا المراكشي فهو متصوّف بحقّ، يعالج المرضى ويسدي لهم النصائح. كان دائما يقول عن مهمدو:« "الإنسان الوحيد الذي يرى ملا يرى ويسمع مالا يسمع" ثم اقترح عليه أن يبدّل مكان إقامته ويهجر كهفه الموحش.» [17] وقد اقترح عليه أن يقيم في الجامع حيث سيضمن له العناية. وحين أغمي على مهمدو وظنّ الجميع أنّه مات سارع الحاج البكاي، وهو أحد أتباع الطريقة القادرية، إلى تحضير مراسيم الجنازة والدفن، وصرخ في القوم المذهولين: «لا حول ولا قوّة إلاّ به تعالى استغفروا الله يا جماعة، إنّ الموت أقرب لنا من حبل الوريد، فما بالكم تقفون كالبلهاء؟ رحمة الميت أن تغسلوا جسده وتودعوه القبر بأسرع وقت.»[18] وحين جاء من همس في أذن الشيخ المراكشي بما يفيد أنّه سمع صراخا ينبعث من القبر، نهره وحمد الله أنّ أحدا من الحاضرين لم يسمع هذا "الهذيان"، ثمّ خشي الناس أن تكون روح المرحوم قد تملّكتها الأرواح وبدأ مهمدو يخضع للحساب، سخر المراكشي من هذا التفسير"الشعبوي" في البداية، ثمّ مالبث أن هبّ يهجم على القبر بالفأس وينهمك في الحفر لاستظهار الميت –الحي، فاعترض الحاج البكاي قائلا إنّ هذا جنون، وتدنيس لقداسة الموتى واقتراف للإثم، اتق الله يا شيخ والعن الشيطان، فلعنه الحاضرون أيضا واشتبك الشيخان في عراك طويل انتصر فيه المراكشي وصاح في القوم:« هيا ساعدوني في الحفر ولا تضيعوا الوقت.» [19] بينما صاح فيهم الحاج البكاي :« تقفون كالبلهاء مكتوفي الأيدي في وقت يعمد فيه الأحياء إلى نهش رفات الموتى، يا جماعة الضرب في الميت حرام.» [20] في الأخير انتصر رأي المراكشي، وهجر البكاي الواحة.

إنّ صوتي البكاي والمراكشي مع أنّهما يصدران من خلفية واحدة إلاّ أنّ صراعهما ليس إلاّ قولا موارِبا من السارد أنّ الدّين عامل توحيد للقبيلة، لكنّ اختلاف المذاهب هو وبال القبيلة: لا يمكن أن يكون الدّين دينين وإن كانت القاعدة تقول:

في الاختلاف رحمة، مع ذلك، فإنّ ازدواجية الصوت الديني لا تكشف إلاّ عن تعدّد صوتي يحفل به مجتمع الرواية وإن صدر عن خلفية واحدة.

2-4- الخطاب الإمبريالي: يمثّل الجنرال "بالبو" والكابتن "بورديللو" والمهندس "موري" صوت الامبريالية والاستعمار بكلّ أشكالهما رغم اختلاف وظائفهم. هكذا يسعى "بالبو" للاستيلاء على الأرض بقوّة الجيوش ويستغرب أن يحاربه الأهالي، صوت عسكري متعال، يحتقر المقاومة ويصف المقاومين بأرذل الصفات، في كلامه عنجهية غير مبرّرة وغرور القوّة. قال مرّة لغوما وهو سجينه:« لماذا ترفعون السلاح في وجوهنا مادمتم لا تطمعون في النصر؟... هذا غباء، هذه ليست بطولة، لا يمشي في الركب الذي يتحرّك نحو العدم والموت إلاّ البلهاء أمثالكم!... بدو بلهاء تدفعون بأنفسكم للتهلكة وتتوهّمون أنّكم تؤدّون الواجب، الواجب في الدفاع عن ماذا؟ عن صحراء عارية لا أوّل لها ولا آخر ...هئ، هئ، هئ... يا لكم من مكابرين بلهاء... لديّ اقتراح: لماذا لا تتركوا لنا الشريط الساحلي وتذهبوا لتمارسوا الحرية في الصحراء...» [21]. وصوت الكابتن "بورديللو" لا يختلف في مضمونه عن صوت جنراله، مع حماس زائد وطموح يفوق قدراته، إنّه صورة للبطش والتنكيل التي عرف بها الاستعمار العسكري. حين كان يزور"آجار" في السجن مرّة، دفع نحوه بقارورة خمر شرب محتواها وعبّأها بالبول، وقال له: « سوف نمتحن صمودك، تريد أن تفوز بالبطولة على حسابي. تقود التمرّد وتثير البلبلة بين المتطوّعين وتخرّب خططي، هيا اشرب من نهر الجنة، تطمع في الدخول إلى الجنة هئ، هئ.. أنت بدوي أحمق وسوف تضطرّ لأن تشرب من مياه جنّتي عاجلا أو آجلا، أنصحك بأن تشرب، تضيّع الوقت، اشرب اليوم قبل الغد، فربّما تراجعت في الغد وحرمتك حتّى من البول هئ، هئ.» [22]، يتحدّث عن أحلامه "غير المشروعة" بعد أن تلعب الخمرة برأسه فيقول إنّه سيستولي على بلاد الحبشة، بعد أن يتوغّل في الأدغال « وأنّ المسيح سيتدخّل ويحسم المسألة لصالحه، فيعتقل ملكهم الغوريلا ويضعه في قفص ليفرّج عليه الخلق في شوارع روما، سيقول عنه رؤساءه إنّه شجاع ويليق به أن يحمل لقب حفيد الرومان، وريث شرعي لسيبيون العظيم قاهر هانيبال ومدمّر إمبراطورية الهمج في قرطاجنة، وسينال لقب جنرال! لابدّ أن ينتزع لقب جنرال مقابل انتصاراته في الحبشة.» [23]، بطل مزيّف يبحث عن انتصار

مزّيف، يبحث عن انتصار العظماء بقتل النساء، فقد دفع بزوجة "آجار" إلى ألسنة نار أوقدها جنوده، ثمّ قتل أمّه أمام عينه [24] وأشاع في الأهالي أنّ "آجار" هو من فعل ذلك بعد أن شرب كثيرا من الخمر[25] فلعنه الأهالي ولقّبوه بـ "قاتل أمّه". يحتفل إذا تمكّن من اعتقال بدوي أو راع في صورة "آجار". إنّه نموذج للهمجية الرعناء التي حلّت بالصحراء مع جيوش الاحتلال.

"موري" صورة صوتية أخرى للإمبريالية الغربية، جاء بشركته إلى الواحة لحفر النبع، وهو في الأصل عسكري ينقّب عن ثروات الصحراء، لا يتكلّم كثيرا ولا يقول إلاّ صباح الخير، لكنّ الشيخ" الغالي"، وهو خطيب المسجد، لديه أخبار أخرى عنه:« محدثي أكّد أنّ الطلياني عمل برتبة ملازم في جيش الغزاة، رآه من شقّ الباب في حبس مرزق، جاء برزمة من الأوراق وتحادث مع بورديللو طويلا قبل أن يعود إلى طرابلس.»[26] ولكي لا يكتشف الأهالي حقيقته، غيّر اسمه، وقال الغالي: « ليس صعبا أن يغيرّ اسمه من بَاتريكو إلى موري أو أي اسم آخر، زوّر الأوراق التي تثبت اسمه الجديد. أنتم لا تعرفون هؤلاء الدهاة، ليس هناك أدهى من النصارى... إنّهم ينافسون إبليس في الشيطنة.»[27] لكنّ موري المختبئ خلف اسمه الجديد ومهمّة الحفر، لم يكن في الحقيقة إلاّ عسكريا خادع الأهالي وخطب فيهم بعد أن تمكّن من اكتشاف مقبرة الجرمنت ومومياء الملكة تانس، فقال إنّه:« سعيد لأنّ الله وفّقه في انجاز مهمته فقدّم هديته لأهل الوادي وقال إنّ اكتشاف عاصمة الجرمنت القديمة يعادل اكتشاف مقبرة توت غنخ آمون.. وربّما فاقها هذا الاكتشاف إثارة بعد العثور على مومياء تانس المحنّطة منذ خمسة آلاف سنة... واستنكر تلك الأصوات التي ترتفع في الوادي وتشيع انتماءه إلى الفاشست.. وأوضح بخبث لا يتقنه سوى أمثاله.. أنّ هؤلاء الذين يلفّقون هذه الشائعات يخونون وادي الآجال ويقدّمون خدمة جليلة للاستعمار بالإبقاء على كنوز الصحراء وتاريخها القديم مطمورة تحت الرملة.» [28] ولسنا ندري بعد ذلك كيف يكون الحفاظ على الكنوز خدمة للاستعمار. كلام ملفّق لا يتقن صياغته إلاّ أمثال موري الذي أخذ المومياء المكتشفة إلى عاصمة الواحات ومنها طار إلى طرابلس، ثمّ عبر البحر إلى روما.

أمّا "كونسا" فهو مثال على جهل المستشرقين بالشرق الذي يشتغلون عليه، جاء في مهمة حفر النبع، فتورّط في علاقة مشبوهة مع "زهرة" سيئة السمعة، اضطر أن يتزوّجها ويدخل إلى الإسلام وهو لا يعرف عنه شيئا ولا يريد أن يكون مسلما. تخبر ملفوظاته عن جهله بالدّين وبالصحراء، لا يفرّق بين غزال وعشبة في السراب، تماطل كثيرا في حفر النبع، لأنّه مثل موري كان يبحث عن الكنوز.

2-5- خطاب السلطة: آخر الأصوات التي يصل صداها إلى الصحراء هو صوت السلطة. صوت كلامه موارب وملتو في الحديث وجها لوجه، صريح مع ذاته في السّر. هكذا يسأل الوالي غوما:« أرجو أن تكون محادثاتك مع المسؤولين في الولاية قد أثمرت، أقصد إلى أي حدّ كانوا إيجابيين في تلبية مطالبكم؟.»[29] وحين أجاب الشيخ غوما أنّه لم يجن سوى الوعود برغم تواضع مطالبه، ضحك رئيس المجلس التنفيذي وابتسم الوالي بمرح. وحين شكا له ناظر الزراعة الذي استبعد إمكانية الشروع في مشروع حفر النبع ما كان منه إلاّ أن استلقى في كرسيه إلى الوراء وضحك طويلا واستمرّ يضحك حتى ودّعه عند الباب، فلم يعرف غوما معنى تصرّفه هذا: هل هذا من قبيل الاستحسان أم من باب الاستنكار؟ غرق الحاضرون في الضحك، حتّى الوالي ضحك، مشاكل الرعية عند السلطة مدعاة للضّحك، هذا هو موقفها، وهذا هو خطابها. حتّى عندما فاض النبع وغرقت أدار، وطار الخبر، ووصل إلى عاصمة الولاية وقد« كان الوالي يعقد اجتماعه الأسبوعي، فالتفت إلى رئيس المجلس التنفيذي وتساءل: تقول أدرار، أليست هذه الواحة التي اتخذها غوما مقرا له؟... قمنا بواجبنا على كلّ حال، لم نقصّر في شيء.»[30]، وحين وصل الخبر إلى رئيس الحكومة « ألقى بالجريدة الانجليزية وخاطب سكرتيرته الحسناء: مطالب أهالي الواحات في السنوات الأخيرة لا أوّل لها ولا آخر، الحمد لله الذي خلّصنا من وجع الرأس وأغرق إحداهن، اللّي يموت من الشياطين يخفّف على الملائكة! هيء، هئ، هئ .» [31] وحين بلغ الخبر إلى الملك قال مخاطبا رئيس الديوان الملكي: « الواحات عبئ كبير على المملكة، اللورد كينجستون أخبرني بعد الاستقلال أنّ الصحراء الكبرى منطقة مهدّدة بالزلزال واندلاع البراكين فقلت له:" من فمك إلى باب السماء، ربّنا يسمع منك ويخلّصني، أنا لا أريد من ليبيا غير شريطها الساحلي".هه. هه. هه... وأضاف وهو يقاوم نوبة السعال:

- الله نفسه ضدّ الصحراء، حرمها حتى من النفط وأتى به إلى الساحل، هل هناك أمل في أن يغمر الطوفان كلّ الواحات في الدواخل ويشفينا من الصداع؟.» [32] إنّه خطاب مرعب، تفوح منه رائحة الأنانية والخيانة، صوت قد لا يتوافقّ إلاّ مع خطاب المستعمر، هل هما سيّان لأنهما ليستا سلطتين شعبيتين؟

3- صراع الأصوات: يتجسّد صراع الأصوات الاجتماعية في "الخسوف" من خلال مجتمع الرواية وطبيعية العلاقات التي تقوم بين أفراده (أو جماعاته اللّغوية والمهنية) واستقلال كلّ جماعة بوجهة نظر خاصة. إنّ مجتمع الخسوف كما كشفنا ذلك سابقا، تركيبة غير متجانسة، شأنها في ذلك شأن الرواية بوصفها شكلا هجينا، تشكيلة من البشر لا يجمع بينهم رابط مهني أو ديني أو عرقي(باستثناء أفراد القبيلة)، وهذا ما جعل "الخسوف" حافلة باللاتجانس بين أصواتها التي كانت دائما متباينة وتعبّر عن وجهات نظر متضادّة، فقد بنى الروائي نصّه على أرضية اجتماعية مغايرة للمألوف الروائي العربي، القائم على التجانس الاجتماعي والبنائي أو التركيبي، ما خلق أصواتا مختلفة المصادر الفكرية والرؤى الاجتماعية نحو قضايا مجتمع الصحراء وأحداثه. أصوات على قدر من الحرية والاستقلالية تقرّ بالوعي الغيري، تعارضه لكنّها لا تمنعه من الظهور، ممّا أعطى قوّة حقيقية للصوت الاجتماعي ووجهة نظره، الأمر الذي أنتج تعدّدًا في الرؤى. هكذا تتعارض الأصوات حول كلّ التيمات التي شكّلت إطار الصراع، بدءا بالموقف من زواج "آيس" من "باتا"، حيث يعترض الشيخ غوما على هذه الزيجة ويرى أنّ "باتا" قد عزمت على الزواج بالأطفال بعد أن ملّت من تحطيم الرجال ودفنهم في القبور، لم يتوقّع أن تصل بها الوحشية إلى هذا الحدّ، لكنّها ردّت:« المفاهيم تختلف وأنت لم تتغيّر، ما تراه أنت وحشية أراه أنا حنانا.» [33] صورة نموذجية عن الوعي المفارق الذي تحفل به الرواية على غرار هذا المثال« بدأ سعادي بك سلسلة من الإجراءات التنكيلية بالأهالي وفرض عليهم ضرائب قاسية وإتاوات مجحفة.. اعتبرها البعض جزية كان أحرى لسعادي بك أن يفرضها على الروم لأنّها لا تجوز على معشر المسلمين، وصل هذا الهمس إلى آذان سعادي بك على الفور فاعتبره تحدّيا لسلطته ورأى فيه بوادر للتمرّد.»[34] هكذا ترى الرعية في سلوك الحاكم عملا لا يتطابق مع ما تقوله الشريعة، بينما يرى هو فيما تراه الرعية تحدّيا وتمرّدًا،

الكلمة هنا حلبة لصراع أصوات، أفكار، لا يعوزها التناقض. أمّا صراع "الحاج البكاي" و"الشيخ المراكشي" حول مسألة استظهار جثة مهمدو[35] فيمثّل نموذج الصراع الداخلي في الصوت الواحد على اعتبار أنّهما يصدران من خلفية واحدة، لكنّ أنانية الذات تشطره إلى ما يحقّق غرضها من الصراع حول الموضوع: المذهبية في الخلفية الواحدة مصيبة أخرى في المجتمع المتعدّد، تجزيئ المجزّأ وتفكيك المفكّك تزيد من حدّة الصراع الإيديولوجي، فتنسى الأهداف الحقيقية للصراع كما في حوار "مهمدو" والشيخ "غوما" حول مسألة استظهار الموتى:

« - هل تريد أن تقول إنّك..أنت الذي اقترف تلك الجريمة البشعة؟

- ولماذا تسمي ذلك جريمة؟

- وماذا يمكن أن أسمي التنكيل بالجثث ونبش قبور الموتى؟

- هذه خرافات.

- كيف تسمّي التمثيل بالموتى وإهانة المقدّسات خرافات؟

- أنا أعني ما أقول، الشاة لا يهمّها سلخها بعد ذبحها.

- الشاة لا يهمّها سلخها بعد ذبحها! الإنسان كائن مقدّس وتشبيهه بالشاة تجديف في حقّ الخالق.

- إذا غادرتهما الروح فكلاهما جثة، والجثة نجاسة في عرف الله، هكذا يؤكّد القرآن.

- لست فقيها في الدين ولكنّني أعرف شيئا واحدا، حرمة الميت وقداسة الموت تمنعنا من العبث بجثمانه، وما فعلته تنكيل بجثة طفل..» [36]

محاكمة "مهمدو" بجرم هبوب العاصفة وغزو العقارب للواحة صورة أخرى من صور تعدّد أشكال الوعي وصراع الأصوات، وهي تكشف ثلاثة أوعاء مختلفة على الأقل:

« قال الجاروف: مسؤوليته في ذلك أكيدة يا جماعة. يستطيع السّحر أن ينقلب على السّاحر كما يحدث دائما في الواقع، لكن أن يتعمّد السّاحر أن يقلب السّحر علينا وعلى كلّ الواحة وينجو هو فهذا ما يستوجب العقاب.

قال الزبرجداني: يجب التحقّق أوّلا من قيامه بالفعل الأوّل، هل قام باستدعاء العاصفة؟ هنا همهم أكثر من الصوت:" نعم، نعم هذا مؤكد."

واصل الزبجداني: هل للعاصفة علاقة بالعقارب؟

هتف أكثر من صوت:- علاقة مباشرة، طبعا، طبعا.

زمجر الجاروف: - لماذا نذهب بعيدا يا سي القاضي؟ لقد اعترف بنفسه أنّه أخطأ في الخلطة السحرية أو في الترتيب أو في شيء من هذا القبيل ..ظلّ يبكي ويشتكي ويطلب المغفرة من المارّة طوال الأيام الماضية.. ثمّ التفت إلى الوجهاء عل يمينه وسألهم:

- أليس صحيحا ما أقول يا جماعة؟

فأجابوه وهم يهزّون رؤوسهم: صحيح صحيح، أكّد ذلك أكثر من شاهد.

واصل الجاروف قراءة صحيفة الاتّهام:

- ماذا تريدون أكثر من هذا؟ هل هناك دليل يفوق الاعتراف؟

اعترض أحد الحاضرين: ربما فقد قواه العقلية، الاعتراف لا تكون له قيمة قضائية إلاّ إذا ثبت أنّ المجرم يتمتّع بكامل قواه العقلية.

تولّى الجارف استنطاقه:- هل تريد أن تقول إن مهمدو يهذي؟

- نعم ربّما يهذي، لا شكّ أنّه كان يهذي.

قال الجاروف:- هل يعقل أنّه كان يهذي طوال الأيام الماضية؟ لقد اعترف بنفسه أكثر من مرّة، أياما متتالية، لمجموعة من الناس. يستطيع أن يهذي في اليوم الأوّل ويستطيع أن يهذي في اليوم التالي ولكن ليس في كلّ الأيام، مهمدو هو البلوى، وعلينا أن نتّخذ قرارا بشأنه.

قال غوما في نفسه:" أنا أعرف ماذا يريد هذا الخبيث، لم يأت اليوم للتّعاطف ولكن لجسّ النبض، هو يعلم خصومتي مع العجوز ويريد أن ينتهز الفرصة ليدقّ الإسفين بيننا من ناحية ويؤلب أهل الواحة للتخلّص من مهمدو من ناحية أخرى، إنّه لا يطيق مهمدو بسبب ماضيه المجيد ويسعى لإبعاده من الواحة" في النهاية..

وجّه كلامه إلى الجاروف مباشرة:

- حتّى أطفالكم يضحكون عليكم لو سمعوا جدلكم هذا، تحدّثنا يا شيخ عبد الجليل عن ظواهر الطبيعة كأنّنا ضيوف نزلوا من القمر اليوم، قل لي بالله: متى كان السحرة أو العرافون سببا في بلاوي الطبيعة؟ عشنا طول عمرنا في الصحراء ونعرف أنّ موجات الحرّ لا علاقة لهجومها بالسحرة، وهي تؤدي إلى حرائق كما

تستدعي الأمطار الغزيرة، وإذا لم تعقبها الأمطار الغزيرة أعقبتها العواصف المجنونة وقد يأتي الضيفان معًا ويجيئان بمفاجآت يصعب التنبؤ بها، ومن ضمن هذه المفاجآت هذه السلّة العجيبة من العقارب السوداء،فلماذا تريدون أن تبحثوا عن السّر في المغارة والأمر كلّه أبسط من البساطة.» [37] تجمع هذه المحاكمة أوعاء تتصارع وخطابات متضادة حول موضوعة واحدة، يحتكم كلّ صوت إلى خلفية بعينها ويتجسّد وعيه في ملفوظات مغايرة: الجاروف والزبرجداني يشكلّان وعيا مشتركا بضرورة معاقبة "مهمدو"، "أحد الحاضرين" الذي لم يكن موافقا على أنّ "مهمدو" مذنب ولكن لا دليل لديه غير تقدّم مهمدو في السن حتى صار يهذي. الشيخ غوما الذي يعرف الخلفيات التي يصدر عنها الجاروف، وهو يشكّل وعيا مفارقا، لا يقبل مقدّمات المحاكمة ونتائجها، وقد انتصر في النهاية رأيه.

ومن الكلمات التي شكّلت حلبة صراع صوتي بين الشيخ غوما و"الوالي" كلمة "جهاد" التي ينكشف مدلولها عند الوالي بالشكل الذي يجعلها تنسحب على كلّ من رفع السلاح في وجه الاستعمار وشارك في حرب التحرير« وسرد عددا من القصص البطولية المختلفة، فاستفزّ ذلك الشيخ غوما ودفعه إلى التعليق:

- أنا أعتبر أنّ المجاهد الحقيقي هو ذلك الذي يرقد بسلام تحت أحجار المقابر، أمّا الذين كتبت لهم الحياة –أمثالنا يا سيادة الوالي- فمن المخجل أن ندّعي البطولة لمجرد أنّنا أحياء نرزق، ولو سمع رفاقنا الذين استشهدوا لغطنا ونحن نتشدّق بالجهاد ونتاجر بواجب حماية الأرض لقاموا من فورهم وبصقوا في وجوهنا، لا شكّ أنّهم يتململون الآن في قبورهم وهم يسمعوننا نثرثر آناء اللّيل وأطراف النهار ولا نملّ من سرد مآثرنا المزعومة، ونحن نحتسي الشاي الأخضر أو نحشو بطوننا بلحم الخراف لمجرّد أنّ الحظّ حالفنا وأطلقنا رصاصة طائشة في معركة يتيمة.» [38]

هكذا يكشف ملفوظ غوما وعيا مفارقا حول معنى" الجهاد". إنّه يخالف المعنى الذي يعطيه الوالي للكلمة، ولربما خالف حتى المعنى الذي يعطيه معظم الناس لهذه الكلمة، ومن يجرؤ في الواقع أن يخالف الوالي؟ المجتمع الروائي المتعدّد يسمح للشخصيات بذلك وإن كان الواقع عكس ذلك، أو أنّ الرواية ليست إلاّ تسجيلا للواقع، فلو لم يحدث ذلك في الواقع فعلا ما حدث على صعيد التخيل.

مفهوم كلمة "صحراء" هو الآخر شكّل حلبة صراع صوتي بين الشيخ غوما والجنرال "بالبو"، قال بالبو:

« - بدو بلهاء! تدفعون بأنفسكم للتهلكة وتتوهّمون أنّكم تؤدّون الواجب، الواجب في الدفاع عن ماذا؟ عن صحراء عارية لا أوّل لها ولا آخر، هئ ،هئ، هئ ...

- الصحراء هي الحرية!

- هئ. هئ. هئ.. الصحراء هي الحرية!

- لا نستطيع أن نحتمل الحياة بدون صحراء!

- هئ. هئ. هئ. قالوا لي أنّك شجاع لكن لم يقولوا لي أنّك حكيم أيضا! يالكم من مكابرين بلهاء!

- ...

- لدي اقتراح: لماذا لا تتركوا لنا الشريط الساحلي وتذهبوا لتمارسوا الحرية في الصحراء؟.» [39]

تكشف ملفوظات الشيخ غوما حول الصحراء، وعيا مفارقا، صوتا مختلفا، مفهوما مختلفا للصحراء عن ذلك الذي يعرفه "بالبو" ويعرفه معظم الناس عن الصحراء بأنّها خلاء واسع بلا أطراف، حيث تتجسّد في وعي غوما رديفا للحرية بخلاف ما تتجسّد في بعض الأوعاء بأنّها رديف للضياع والتيه والموت.

حوار الشيخ غوما والحكمدار نموذج آخر للوعي المفارق يكشف عن ازدواجية في الموقف من أشياء كثيرة:

«- الخلاصة أنّ بإمكان الرجال دائما أن يصلوا إلى اتفاق إذا احتكموا إلى العقل، أنت تتقدّم خطوتين وأنا أستقبلك بخطوتين فنلتقي في منتصف الطريق.

- ولكن يبقى الأبيض أبيضا والأسود أسودًا، الحقيقة لا تقبل التجزئة...

- أصبح أخي ضحية لغبائه وتطرّفه.

- ليس التطرّف في سبيل الحق غباء!

- ولكنّه أكلها وانتهى دون أن يستطيع أن يغيّر من الأمر شيئا!

- ولو... هذا ما يعطي لأمثاله القداسة التي نسمّيها شهادة.

- لقد أخفق، انتهى إلى الباطل، ولا معنى لشيء ينتهي إلى الباطل.

- كلّنا ننتهي إلى الباطل شئنا أم أبينا والدفاع عن موقفنا هو الذي يمنح الباطل طعما.

- بسبب موقفه عانيت أيضا، بحثوا عني بهدف اعتقالي فهربت إلى مصر، تعرّفت هناك بالمرحوم الوالي فشفع لي عند صاحب الجلالة، الوالي صاحب فضل عليّ رحمه الله، طاردوني برغم أنّي لم أجاهر بمعارضة ولم أدل بما يمكن أن يشتم منه العداء .

- في زماننا يكفي أن تكون شريفا لكي تشار لك أصابع الاتهام. الشرف وحده تهمة.

- وبرغم ذلك ساهم تدخّل الوالي في تليين قلب الملك فغفر لي.

-غفر لك ذنبا لم ترتكبه.

- إنّ الملوك معذورون دائما، لأنّهم يسمعون بآذان غيرهم ويرون بعيون غيرهم ويحكمون بآراء غيرهم. الحاشية هي التي تحكم نيابة عنهم.

- هذا تبرير واضح للظّلم.

- هذه مرونة، المحافظ أمر بإطلاق سراح آيس ولا يريد منك سوى أن تصمت عن الباقي وتدعه يواجه المتمرّدين بالشدّة.

- هل هذه رشوة؟

- هذه مرونة.

- الحقيقة لا تقبل المناصفة، لقد اتفقنا.

- اتفقنا على أن نلتقي في منتصف الطريق، في السياسة يسمّون ذلك "الحل الوسط".

- لا وسط في الحق، عليه أن يطلق سراح الأبرياء.

- ربّنا يهديك.

- ربّنا يهدي الجميع، ربّنا يهدي من خلق.» [40]

يكشف هذا الحوار في طوله عن تضادّ وعيوي حول مجموعة كبيرة من الكلمات-الأفكار بداية بمفهوم التفاهم ومرورا بمفاهيم التطرّف والباطل والرحمة والمغفرة والمرونة والحقيقة ووصولا إلى مفهوم الحلّ الوسط. حيث لا يلتقي المتحاوران حول أيّة نقطة مشتركة، ولا غرابة في الأمر مادام الحكمدار مكلّف بنقل خطاب المحافظ ومساومة الشيخ في الصمت مقابل إطلاق صراح حفيده. وهكذا

يخلق تمايز الأصوات الاجتماعية طابع اللاتجانس في بنية الرواية ويسهم بشكل مباشر في ظهور مسوّغات الصراع الإيديولوجي ومن ثمّ في إيجاد رؤى مختلفة، ليس بين الشخصيات فقط بل حتىّ بين السارد وشخوصه، ذلك أنّ الأصوات قد انتزعت مهمّة التعبير عن ذاتها منذ أن أوجد الروائي أصواتا على هذا النحو المتضاد.

4- **بمثابة خاتمة**: إنّ ما يجمع التكوينات الفنية من نسيج اجتماعي يتولّد أثناء السرد وليس قبله، وهذه الميزة يعود الفضل في وجودها إلى الرواية وليس إلى الواقع، إذ بإمكان الروائي أن يصل إلى الحالة الاجتماعية نفسها فيما لو أخذ تركيبات اجتماعية أخرى من ساكنة الصحراء وليس فقط هذه النماذج التي عرضتها" الخسوف" باعتبار أنّ القيمة الأساسية هي الفعل الذي ينشأ خلال السرد، فالفعل هو الذي يفرض الشخصية وهويتها وطبيعة صوتها.

الهوامش:

1- إبراهيم الكوني، الخسوف، ج2، الواحة، ط2، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، قبرص 1991، ص .13

2- المصدر نفسه، ص .240

3- إبراهيم الكوني، الخسوف، ج1، البئر، ط2، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، قبرص 1991، ص 40.

4- المصدر نفسه، ص 41.

5- المصدر نفسه، ص 11.

6- المصدر نفسه، ص 59-60.

7- إبراهيم الكوني، الخسوف، ج3، أخبار الطوفان الثاني، ط2، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، قبرص 1991، ص 122.

8- إبراهيم الكوني، الخسوف، ج4، نداء الوقواق، ط2، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، قبرص 1991 ، ص 52-53.

9- أخبار الطوفان الثاني، ص 145.

10- الواحة، ص 248.

11- ينظر، أخبار الطوفان الثاني، ص 68.

12- المصدر نفسه، ص 69.

13- المصدر نفسه، ص 78-79.

14- المصدر نفسه، ص94-95.

15- المصدر نفسه، ص 95.
16- ينظر، المصدر نفسه، ص 126.
17- الواحة، ص 125.
18- المصدر نفسه، ص 126.
19- المصدر نفسه، 128.
20- المصدر نفسه، ص128.
21- المصدر نفسه، ص 129.
22- أخبار الطوفان الثاني، ص 90، 91، 92.
23- نداء الوقواق، ص 154.
24- ينظر، المصدر نفسه، ص 155.
25- ينظر، المصدر نفسه، ص 75.
26- المصدر نفسه، ص 158.
27- المصدر نفسه، ص 128.
28- المصدر نفسه، ص 130.
29- المصدر نفسه، ص 133.
30- أخبار الطوفان الثاني، ص 25.
31- المصدر نفسه، ص 144.
32- المصدر نفسه، ص144.
33- البئر، ص 206.
34- الواحة، ص 78.
35- ينظر، المصدر نفسه، ص 128-129.
36- الواحة، ص 183.
37- المصدر نفسه، ص 233-234.
38- أخبار الطوفان الثاني، ص 27.
39- المصدر نفسه، ص 91-92.
40- المصدر نفسه، ص 79-80-81.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊